المجلة العربية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Arab Journal for Humanities and Social Sciences

Impact factor isi 1.651

العدد الرابع والعشرون _ نيسان _ 2024

ملحمة الاسر العاطفية عند محمود درويش

إعداد الطالبة رقية مراد

المجلة العربية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Arab Journal for Humanities and Social Sciences

الحُبّ في شعر الأسر عند محمود درويش

يُعَدّ محمود درويش من أكثر الشّعراء الذين تناولوا موضوع الحبّ ولكنّه كان متميّزًا في عشقه، فقد أولى كلّ تفكيره وقصائده لوطنه فلسطين، فاقترن اسمه باسم فلسطين. فمنذ الطّفولة يشعر بالظلم والطّغيان، ودائمًا يحسّ بأنّ طفولته مشوّهة مسلوبة مسروقة، وخير دليل على ذلك قصيدته الأولى صرخة من طفل عربيّ إلى طفل يهوديّ :

يا صَديقي بِوُسْعك أن تلعبَ تحتَ الشَّمس كما تَشاء

بِوُسْعك أن تَصْنَع ألعابًا

ولكنّني لا أستطيعْ

أنا لا أملكُ ما تَمْلِكُه

لكَ بيتٌ وليسَ لي بيت

لكَ أعيادٌ وأفراح

وأنا بلا عيدٍ أو فرح

ولماذا لا نلعبُ معًا [1]

[1] رجاء نقّاش ،**محمود درويش شاعر الأرض المحتلّة** صفحة 105

لقد كانت الأنا دائمًا مهزومة في شخصه، فهو يعرف أنّ له حقوقًا كثيرة لكنّها مسروقة. ففي قصيدته "الطّفل اللّاجئ" الّذي لا يعرف بلاده من ديوان "عصافير بلا أجنحة" يقول :

حدّثوني عَلّني أذكر شيئًا من بلادي عابقًا في شفتيّ

أنا لا أذكرأيّام الهَنا

فَأعِيدوها صَدًى في أذنَيّا

وأَعِيدوها نداءً صَارخًا

في شِفاهي وأَعِيدوها دَويّا [1]

ففي هذه الأبيات نرى الشّاعر محمود درويش يطالب بأن يسمع عن وطنه، فالطّفولة الهشّة قد تكسّرت بنظره فلا يذكر فيها أيّام الرّاحة، فوطنه مقيّد مجروح، حتّى ولو صدى أيّام السّعادة يريد أن يسمعها، فنلاحظ في هذه الأبيات نفس الشّاعرتبكي وتئنّ من الإضطهاد والظّلم. ويكرّر آلام الطّفولة الّتي عاصرها فيقول :

اضْغَط على جَسدي الطّريّ لقد نضجتُ

وأدْعَكْ شفاهي هكذا إنّي احْتَرَقْتُ

ادْعَكْ، بلى بِحرارةٍ انّي كَبُرتُ [2]

---

[1] محمود درويش ،**الدّيوان الأول (عصافير بلا أجنحة)** الصادر سنة1960م

[2] محمود درويش ،**ديوان محمود درويش ،عصافير بلا أجنحة** ،ط2، 1971 ص73

إنّ حبّ الذات عند الشّاعر مرتبطة كلّ الإرتباط بالقضيّة الّتي يعيشها، والحبّ عنده مستقًى من المشاركة النّضاليّة، ففي هذه الأبيات تبرز الأنا الدّفاعية المقاومة، فمحمود درويش حمل القضيّة الفلسطينيّة في كلّ زوايا حياته حتى محبوبته فهو يضفي عليها كلّ الصّفات الفلسطينيّة فيقول :

وباسمكِ صِحتُ بالأعداءِ

كُلي لحمي اذا ما نمت يا ديدانُ

فبيضُ النّملِ لا يَلِدُ النّسور

فبيضَةُ الأفعى

يختَبئ وقشرها ثعبان

خيولُ الرّوم أعرفُها

وأعرفُ قبلها أنّي

أنا زينُ الشباب، وفارس الفرسان

لقد كان محمود درويش صرخةَ شعبٍ يُدافع عن حقّه، فقضية ارتباطه بالأرض قضيّة مُقدّسة لا جدال حَولها، ودائمًا بسبب اغتصاب الصّهاينة لأرضه نلاحظ الأنا متألّمة مُكبّلة، فيشعر أنّه مصلوبٌ هو وشعبه ولكنّ الأمل حاضرًا بالنصر والخلاص شديد فيقول :

مِن غابةِ الزّيتونِ جاء الصّدى

وكنتُ مصلوبًا على النّارِ

أقولُ للغربانِ لا تنهشي

فربّما تُشتي السّما...رُبّما

أنزلُ يومًا عن صليبي...ترى

كيفَ أعودُ حافِيًا عاريًا...

وقد كانت الأنا تظهر في في كلّ قصائد الشّاعر لكنها الأنا الحزينة المنكسرة حينًا الثائرة أحيانًا أخرى ففي لحظات التمرّد غالبًا ما يستحضر شاعرنا شخصيات تاريخيّة عظيمة. مثلًا استشهد بـ "عوليس" فقال إنّه لم يخرج من أرضه إنّما بقي فيها مدافعًا عنها حسبَ الرّؤية الدّرويشية فيقول :

" أكواخُ أحبابي على صدرِ الرّمالِ

وأنا مع الأمطارِ ساهرِ

وأنا ابنُ عوليس الذي انتظر البريدَ من الشّمالِ

ناداهُ بحّارٌ لكنّه لم يُسافر

لجَمَ المراكبَ وانتحى أعلى الجبالِ" [1]

[1] محمود درويش ،**أرى ما أريد** ،منشورات دار الجديد بيروت 1990 ص 78

ISSN: 2709-5312

ونلاحظ أنّ محمود درويش متمسّكٌ بأرضه لآخر نفس فيه، وهذه الأنا لا يمكن أن تهدأ حتّى تنتصر، فنلاحظ إيمانه الممزوج بالإرادة والطّموح في قوله :

يا صخرةً صلى عليها والدي يتصوّر ثائر

أنا لن أبيعك باللآلئ

أنا لن أسافر، لن أسافر [1]

إنّ " اغتراب الأنا " عند الشّاعر محمود درويش لا ينفصل عن الظّرف السّياقيّ للواقع المفروض المنكسر سياسيًا منذ اتفاقيّة أوسلو عام 1993، ويتجلّى الاغتراب في جانبين نفسيّ ومكانيّ، وكان ديوانه "لماذا تركت الحصانَ وحيدًا" قد حمل معاني غربة الذات وآلامها مستشهدًا أيضًا بما تشربّه من اطّلاعه على الحضارات وثقافته الواسعة فيقول في قصيدة أرى "حبيبي قادمًا من بعيد" :

أطِلّ على ما وراءَ الطّبيعة :

ماذا سيحدث .... ماذا سيحدثُ بعد الرّماد

أطلّ على جسدي خائفًا من بعيد

أُطلُّ كشُرفة بيتٍ على ما أريد

أطلّ على لغتي بعد يومين

يكفي غياب

[1] محمود درويش، **أرى ما أريد**– منشورات الجديد، بيروت 1990 ص78

يكفي[1]

♦ **حُبّ الأمّ :**

لقد أنشدَ محمود درويش للوطن والقضية والحبّ والسّلام وللمرأة بشكلٍ عام، والأم بشكل خاصّ؛ وعند قراءة شعر محمود درويش يتّضح لنا أنّ صورة المرأة تُمثّل لديه ملمحًا آخر من ملامح شعره ،عدا القصائد الوطنيّة المقاومة يبدي فيها حنوًّا خاصًا على المرأة واحتفاء أنيقًا بالأنوثة في أسلوب خالٍ من الابتذال المتصنّع أو الممتهن لذات المرأة الأمّ والحبيبة و الصدّيقة و الرّفيقة في درب الحياة.[2]

وتُعدّ قصيدة "إلى أمّي" ببساطتها وسهولتها وسلاسة ألفاظها من أجمل ما كتب محمود درويش، فالحديث عن الأمّ بهذا الشّكل هو حنين للوطن وشوق لأيام دافئة قضاها في حناياه، والأمّ هنا رمزللصّبر والعطاء والتّفاني، وهي تمثّل في نظر الشّاعر الوطن المسلوب الجريح فيقول :

---

[1] **ديوان "لماذا تركت الحصان وحيدًا"** ،محمود درويش ، ص8

[2] حيدر بيضون: **محمود درويش ، شاعرالأرض المحتلّة** ، دار الكتاب العمليّة ، بيروت 1991 ، ص11

أحنّ إلى خبزِ أُمّي

وقهوة أمّي

ولمسَة أمّي

وتكبُرُ في الطّفولةِ

يومًا على صدر يوم

وأعشقُ عمري لأنّي

إذا مِتُّ،

أخجلُ من دمع أمّي!

خذيني، إذا عدتُ يومًا

وشاحًا لهدبك

وغطّي عظامي بعشب

تعمّد من طهر كعبك

وشدّي وثاقي...

بخصلة شعر

بخيط يلوّحُ في ذيل ثوبك...[1]

هذه الأبيات تلتقط جزئيات الحياة اليوميّة الفلسطينيّة الحميمة – خبز الأم قهوتها صورها – الطفولة – خصلة الشعر..

ويقول أيضًا :

والياسمين اسم أمّي : قهوةَ الصُّبحِ

الرّغيف السّاخن ، النّهر الجنوني ، والأغاني

حين تتكئ البيوت على المساء

أسماء أمّي[2]

إنّ الأمّ عند درويش الملاذ الذي يلوذ إليه عند قسوة الأيّام وظلم الحياة، فيرى في استحضار صورتها خلاصًا من الشعور بالوحدة والضّياع إنّها الجانب المشرق في تاريخه، وفي قصيدة أخرى يقول :

أُمّاه .... يا أُمّاه

لمن كتَبتِ هذه الأوراق

أيّ بريدٍ ذاهبٍ يحمل؟

---

[1] محمد حجابي،**إلى أمّي وجماليّة الإنسياب في البساطة**

[2] محمود درويش ، **الدّيوان** ،دار العودة ،بيروت 1993 ، ص566

ISSN: 2709-5312

سرتُ طريق البرّ والبحار والآفاق

وأنتِ يا أمّاه[1]

وفي قصيدة للشّاعر بعنوان "رسالة من المنفى" والحزن يسيطر على قلبه فلا يجد غير الأمّ ليشكو لها حاله الكئيب، فهو غريبٌ نازحٌ ويزداد قهره ليلًا فيشعر بأنّ اللّيل ظالمٌ مثل الذّئاب الّتي تأكل الفرائس ظُلمًا فيطارده كيفما ذهب ويسأل باستنكار أمّه ماذا جَنَينا يا أمّاه؟ فمِن فرط حُزنه يشعر بآلام الموت وهو على قيد الحياة فلا يستطيع لجم دمعه فيملأه البكاء فيقول في هذه الأبيات

اللّيل يا أمّاه- ذئبٌ جائعٌ سفّاحُ

يطاردُ الغريبَ كيفما مضى

ويفتح الآفاقَ للأشباحِ

وغابة الصّفصافِ لمْ تَزَل تعانقُ الرّياح

ماذا جَنينا نحنُ يا أمّاه

حتّى نموت مرّتينِ

فمرّةً نموتُ في الحياةِ

ومَرّةً نموتُ عندَ الموتِ

[1] محمود درويش ، **الديوان** ، دار العودة بيروت 1993 ،ص39

ISSN: 2709-5312

هَل تعلمين ما الّذي يملَؤني بكاء؟

مَرِضْتُ ليلةً وحَدّ جسمي الدّاء

هل يذكر المساء

مهاجرًا أتى إلى هنا.... ولمْ يعُد إلى الوطنِ[1]

- **الحبيبة والوطن :**

لقد انفرَدَ درويش عن غيره من الشّعراء برموزه الخاصّة المبدعة التي جعلته مميّزًا عن غيره، وقد أعطى للمرأة مكانتها التي تسمو بها، ودليل ذلك أنّها احتلّت المكانة العُليا في انتاجه الشّعريّ، وأخرجَها مُكرَمَةً من البُعدِ الجسديّ وجعلها رمزًا للمقدّس – الوطن – . لقد أبدعَ بربط الحبيبة بالوطن ففي هذه الأبيات يصوّر الوطن كأنّه المعشوقة فيقول :

عيونك شوكةٌ في القلبِ

توجعني....وأعبُدُها

وأحميها من الرّيح[2]

وفي قصيدة الأرض يقول :

أنا الأرضُ

---

[1] محمود درويش ،**الأعمال الأولى** ،المجلّد الأوّل ،صفحة 41

[2] محمود درويش ،**الديوان** ،دار العودة ،بيروت 1993م ،صفحة 79

والأرضُ أنتِ

خَديجة لا تُغلقي البابَ

لا تَدخُلي من أناء الزّهورِ وحبلِ الغسيلِ

سَنَطرِدُهُم عن حجارة هذا الطّريق الطّويل

سَنَطرِدُهُم من هواءِ الجَليلِ[1]

وفي قصيدة النّزول إلى الكرمَل يمزجُ فرحًا كاملًا بين المرأة الحبيبة ولكنّه لا ينساها فهو برغم تهجّره من فلسطين إلّا أنّ هواها يسير في دمِهِ فيقول :

تركتُ الحبيبة لَم أنسَها

تركتُ الحبيبة

تركت...

أحب البلاد التي سأحب

أحب النساء اللواتي أحب

ولكن غُضْنًا من السرور في الكرمل الملتهب

يعادل كل حضور النساء

[1] محمود درويش ،**الديوان** ،دار العودة ،بيروت 1993م ، صفحة 618

وكل العواصم

أحب البحار سأحب

أحب الحقول التي سأحب.[1]

ويقول في موضع آخر :

خذيني تحت عينيك

خذيني لوحة زيتية في كوخ حشرات

خذيني آية من سفر مأساتي

خذيني لعبة... حجرا من البيت[2]

وقد اكتسَتْ القصائد الوطنيّة في أحيانٍ كثيرةٍ غلالةً رقيقةً مِن الغزلِ يخرجها من طبيعتها البسيطة الوطن و يضع لها قناعًا رومانسيًّا، يتمثّل في الحبيبة التي يخاطبها فهو يعشق المزج بينهما فهو يصور الوطن بالعشيقة و يلومها و يعترف لها بحبّه الباقي رغم أنّها مع غيره فعسَلُ شفاهها ويداها وحرير صدرها، كلّ جميل فيها يمرح به غيره، لكنه يحبّها في الوقت الذي يعاني فيه هو " أنا على أساورك السّوداء شاهدة " فيقول لها في قصيدة غنيّة بالرّوح الرومانسيّة :

---

[1] محمود درويش ،**الديوان** ،دار العودة ،بيروت 1993م ، صفحة 84

[2] محمود درويش ،**الديوان** ،دار العودة ،بيروت 1993م ، صفحة 679

ISSN: 2709-5312

عَسَلُ شِفاهِكِ واليدانِ

كأسا خمورٍ

للآخرين

الرّوحُ مرحة، وحرشُ السّنديان

مشطٌ صغير

للآخرين

وحرير صدرك والنّدى والأقحوان

فرشٌ وثير

للآخرين

وأنا على أساورِكِ السّوداء شاهد

عطش الرّمال أنا... وأعصاب المواقد

ويستنكر في نهاية القصيدة، فكيف من الممكن أن تكون أرضه مسلوبةً من يغلق الأبواب.[1]

وينعت الصهاينة بالطّغاة والمردة ولكن بكلّ الألم الذي يعيشه سيحبّها رغم أنّ شهد هذه الأرض في كؤوس الآخرين فيقول :

[1] محمود درويش، **الأعمال الأولى**، المجلّد الأوّل، ص 18

مَن يوصِدُ الأبوابَ دوني

أيُّ طاغٍ؟ أيُّ مارِدْ؟

سّأحبُّ شَهدَكِ

رُغمَ أنّ الشّهدَ يسكبُ في كؤوس الآخرين

يا نحلة

ما قبلت إلّا شفاهَ الياسمين[1]

وقد برزت الرّمزيّة في شعر درويش بشكلٍ ملحوظ، وغالبًا ما نراه يترك النّصّ مفتوحًا على غيب التّأويل، فقد قبض محمود درويش على التاريخ، فكانت لغته ثرية، ومعارفه متشبّعة، فيقول في هذه الأبيات مخاطبًا حبيبته :

ألَم نفترق؟ قلتُ قالَ: بلى

لك مني رجوع الخيال إلى الواقعي

ولي منكِ تفاحة الجاذبية

قلت: إلى أين تأخذني؟

قال صوبَ البداية، حيث ولدتَ

[1] م.ن. امصدر نفسه

ISSN: 2709-5312

هنا أنتِ واسمُك[1]

ويصوّر درويش في هذه الأبيات ضراوة الأيام والحروب التي عاصرها وكانت تخطفه من يد عشيقته وهما يعيشان أجمل اللحظات فشبّه المحبوبة بالفراشة وهناك أقوال : "بأنّ الفراشة في كثيرٍ من أعمال الفنّ التي ترجع في تاريخها إمّا إلى العصور القديمة وإمّا إلى عصورٍ أكثرَ حداثة...

ترمز المرأة الموصولة بأجنحة فراشة إلى الرّوح أو إلى خلود الرّوح[2] ويقول مصوّرًا بُعدَه القسريّ عن الحبيبة والأرض :

وعلى سقف الزّغاريد تجيئ الطّائرات

طائرات

طائرات

تخطف العاشق من حضن الفراشة ومناديل الحداد[3]

ويعبّر درويش عن شوقه لأرضه فيخاطبها فيؤلمه الشوق فيموت اشتياقا واحتراقا وشنقًا وذبحا ولكنّ حبّه لها لن يموت سيبقى خالدا، فقد كان شديد التّعلّق بأرضه وإصراره وتحديه الموت لأجلها كان بارزًا في قصائده فيقول :

---

(1) محمود درويش: **ديوان كزهر اللوز أو أبعد**. رياض الرّيّس للكتب والنشر لبنان 2005 ط1، ص 153

(2) أنظر فيليب سيرنج:**الرّموز في الفنّ الأديان الحياة**، عبد الهادي عباس ،دار دمشق صفحة 204

(3) محمود درويش ،الديوان ،**قصيدة أعراس**، صفحة 584

ISSN: 2709-5312

أموتُ اشتياقًا

أموتُ احتراقًا

وشنقًا أموتُ

ودبحًا أموتُ

ولكنني لا أقول

مضى حبَنا وانقضى

حبَنا لا يموتُ[1]

وبالرغم من تعدّد مفردات الأنثى في قصائده مثل دلال، فيروز، أمينة، فاطمة، لكنّه دائمًا ما يشير فيها إلى مواقف سياسيّة ووطنيّة وعاطفيّة استجلاها الشّاعر، فورود الأنثى في نصّ شعريّ يأتي غالبًا مرتبطًا بموقف مأساوي مثال ذلك قوله :

عاشقٌ يأتي من الحرب إلى يوم الزّفاف

ويرتدي بدلته الأولى

ويدخل حلبة الرّقص حصانًا

من حماس وقرنفل

[1] محمد عبد ربه ،**محمود درويش من المهد إلى اللحد** ،دار يافا العلمية للنشر والتوزيع ،الأردن ،عمان ،ط1 ص 196

وعل حبل الزغاريد يلاقي فاطمة

وتغني لهما

كلّ أشجار المنافي ومناديل الحداد الناعمة [1]

فلم تكن فاطمة سوى الفتاة الفلسطينيّة التي تنتظر لقاء عريسها أو ترمز إلى انتظار الفلسطيني للحظة اللّقاء بوطنه، ولكن العرس الفلسطيني ليس كبقية الأعراس فهو لم يكن يهيئ للقاء الأحبة بل كان عرسًا لوداع أحد الطرفين فيقول درويش :

هذا هو العرس الفلسطينيّ

لا يصل الحبيب إلى الحبيبة

إلّا شهيدًا أو شريدًا [2]

ويمزج الشّاعرمزجًا فنيّا رائعًا بينه وبين المقدّس الوطن والحبيبة، فكلّ لحظة حبّ يحسّ بها نحو فتاة هي في الوقت نفسه عاطفة من أجل هذه الأرض المسلوبة فالحبيبة دائمًا تذكّره بالوطن فيقول في رسم حبيبته :

ما الذي يجعل الوطن

بين عينيك أجملا؟

والأساطير والزّمن

---

[1] **محمود درويش عاشق من فلسطين** ،دار العودة بيروت ط1، 1977 ،ص 53

[2] المصدر نفسه صفحة 232

تتمنّاكِ منزلا

أنت عند أمّ الوطن

أم أنا الرّمز فيكما [1]

ويطلب الشاعر من محبوبته أن تبقى معه فهو لا يريد أن يشعر أكثر بالضياع والتّشرّد ويطلب منها التمسّك به فيقول :

وطني حبيبك، فاسمعيني

لا تتركيني

خلفَ السّياجِ

كعشبة بريّةٍ

كيمامةٍ مهجورةٍ

لا تتركيني [2]

الحبّ الفلسطينيّ لا يشبه أبدًا الحبّ الدافئ فلا بيت يضمّ العاشقين، فهذا العشق مختلف في أرض مجروحة مغتصبة، حبّ صادق فهو يشعر بالحريّة مع حبيبته فيقول :

---

[1] رجاء نقاش، **محمود درويش شاعر الأرض المحتلة**، ص197

[2] محمد صلاح أبو حميدة، **المرأة في شعر محمود درويش**، 10h15 \10\2\2015 www.arab48-

حبّنا أن يضغط الكفّ على الكفّ، ونمشي.

وإذا جعنا تقاسمنا الرغيف

في ليالي البرد أحميكِ برمشي

وبأشعارٍ على الشمس تطوف.[1]

[1] رجاء النقّاش، **محمود درويش شاعر الأرض المحتلة**، ص 200